شَجَرَةُ
الأَنبِيَاءِ
- ١٧ -

يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلامُ

في بطن الحوت

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد . مدينة نصر . القاهرة
ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥ منصور الرفاعى عبيد.

م ن ى و يونس عليه السلام: فى بطن الحوت/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.

٢٤ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛١٧)

تدمك : ٥ ـ ١١٥٤ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٩٦٤٩ / ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ أتمَّ شرف للإنسَان هُوَ أنْ يكُونَ عَبدًا لله وحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، وإنَّ تكليفَ الله للبشَر جميعًا بعبَادته لَهوَ أسمَى مَقام ينالُهُ المَخلوقُ، فَالإنسَانُ العَاقِلُ هُوَ الذى يمَلأُ قلبَهُ الإيمَانُ بربِّه، ويعلَمُ أنْ لاَ معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ عَزَّ وجلَّ، إذ خَاطبنَا رُبُّنا سُبحانَهُ وتَعالَى بقوله: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد: ١٩]، فَاللهُ هو خَالقُ هَذَا الكَون، الَّذى أحسَنَ خَلقَهُ وأتمَّهُ، وخلَقَ الإنسَانَ فِى أحسَنِ تقويمٍ، وأسبغَ عَليه نعمَهُ ظَاهرَةً وبَاطنَةً، منْ سمْعٍ وبصَرٍ، وفُؤاد، وتذوُّق، وشمٍّ، وحرَكة، وتنفُّس، ثُمَّ مانلْمَسهُ منْ حَولنَا من هَواء وماءٍ وغذَاءٍ، وألوف الألُوف منَ النِّعم التَّى مَنَّ اللهُ عَلَى الإنسَان بهَا، وذكَرَ بعضَهَا فى كتَابه العَزيز، ليدعُوَنَا إلَى التَّفكير فيهَا، والشُّكر علَيهَا، يقولُ اللهُ جَلَّ شَأنُهُ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

إنَّ خالقَ هَذه النِّعم، ومُوجدَ هذه الكَائنات، ومُسخِّرَهَا لخدْمة الإنسَان لَمْ يتركْ هَذا الإنسَانَ مُهمَلاً، وإنمَا أرسلَ الرُّسلَ، وبعثَ الأنبياءَ، ليدْعُوا إلَى عبادَة الله وحْدَهُ، ويَلفتوا نظرَ النَّاس إلَى التأمُّل فى الكَون ومَا فيه، وكَانَ منْ هَؤلاء الأنبياء، ذَلكَ النَّبىُّ الذى نَعيشُ معَهُ ونَقصُّ خبرَهُ فِى هَذه الصَّفحَات.

يونسُ عليهِ السلامُ

هُوَ رَسولُ اللهِ يُونسُ بنُ مَتَّى، ويَقُولُ بعضُ أهْلِ الكِتَابِ أنَّ اسمَهُ «يُونَانُ بنُ إمتَاىَ» ولكنَّ القرْآنَ الكريمَ ذَكرَ لنَا قصَّتَهُ، وعرَّفنَا أسمَاءَهُ وأوصَافَهُ، فهُوَ يُونسُ، وهُوَ «ذُو النُّونِ» أى صَاحِبُ الحُوتِ. وليونُسَ عَليه السَّلاُمَ مَعَ الحُوتِ قصَّةٌ فِيهَا مِنَ العظَةِ والعبْرةِ، مَا يَستَميلُ القَلبَ، ويهُزُّ الوجْدانَ، إحساسًا بقدرةِ اللهِ، ورحْمتهِ بعَبادهِ المُستغفِرينَ التَّائبينَ.

يونسُ المبعوثُ في نينوى

مثلُ كُلِّ الأنبياء عَليهمُ السَّلامُ كَانَ يُونسُ مبعُوثًا إلَى قومٍ يَعبدُونَ الأَصنَامَ، فِى مَدينة تُسمَّى نينَوَى، أتاهُمْ بدَعوة التَّوحيد، ونصَحَهُمْ أنْ يَدَعوا أصنَامَهم التِى يَعكُفُونَ عليْهَا، ويُؤمِنوا باللهِ الخَالقِ الرَّازقِ، الَّذى بيدهِ مَقاليدُ كُلِّ شىءٍ وإليهِ تُرجَعُ الأُمورُ.

ولكنّه.. كَشأنِ كُلِّ الجاحدينَ المنكرينَ لفضلِ اللهِ، ووقُوفهِمْ أمامَ أىِّ دعوةٍ جَديدةَ عليهِم، هكذَا كَانَ أهلُ نينَوى، إذْ أبطئُوا عَنْ تَلبيةِ دعوةِ يونُسَ عَليهِ السَّلامُ، ولَمْ يُذعنوا لنَصيحتَهِ باتبَاعِ الدينِ القَويمِ، وترْكِ الأصنامِ، الَّتى لاَ تَضرُّ ولاَ تنفعُ ولاَ تُغْنِى عَنْ عَابديهَا شَيْئًا، وإنَمَا هِىَ عَبثٌ، يصنَعُهَا الإنسَانُ بيدِه، ويقدِّمُ لَهَا القَرابينَ، ويَذرُ أحسنَ الخَالقينَ.

ومَا زَالَ يَدعُوهُمْ، ومَا زَالُوا فِى عصيَانِهم، حتَّى غَضبَ يُونُسُ غَضبًا شَديدًا، وبدأَ يفكِّرُ فِيمَا بَينَهُ وبَيْنَ نفسهِ، ويبحَثُ عمَّا قَدْ يكونُ سَببًا فِى عَدمِ تَصديقِهِمْ لرِسَالتِه.



فتارةً يُقنِعُ نفسَهُ بأنَّ السببَ يَأتِي مِنْه هوَ، وأنهُ غيرُ صَالِحٍ للدَّعوةِ فِي تلكَ البَلدةِ، وتَارةً يظُنُّ أن أهْلَ هَذه البَلدة لَمْ يَستجِيبُوا ولَنْ يستَجِيبُوا لَهُ، لأنهُ لَيْسَ مِنـهُمْ، وليسَ بَينهُ وبينَهمْ نَسبٌ ولاَ حَسبٌ، وهوَ بينَهمْ غَرِيبٌ، حتَّى الدعْوةُ التِي أتَاهُم بِهَا غَرِيبَةٌ عَلَيهِمْ.

كَانَ هكَذَا يُفكِّرُ بعْقلِه فقَطْ، ولَمْ يكنِ الـوجْدانُ، ولاَ أعباءُ الرِّسالةِ فِي تَفكيرِه، وخرَجَ مِنَ القرْيةِ، وهُوَ يقُول لنفْسِه:

إنَّ اللهَ الذِى أرسلَنِى إلَى هَذهِ الـقَريةِ قَادرٌ عَلَى أنْ يُرسِلَ غَيرِى إليْـهَا، ومَا أنَا إلاَّ وَاحِدٌ فَقطْ، وأصْفيَاءُ اللهِ كَثيرُونَ، وَهوَ أعْلَمُ حيْثُ يجْعَلُ رِسَالَتهُ، وربَّمَا كَانَ غَيْرِى قَادراً عَلَى إقنَاعِ هؤُلاَءِ الـقَوْمِ برسَالةِ اللهِ، وَاتِّبَاعِ دعوَتِهِ، وَالإيمَانِ بِهِ جَلَّ شَأنهُ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.

كَانتْ نِينَوى إحْدَى مُدنِ العِرَاقِ، ولَمْ يكُنْ يُونسُ مِنْ أهلِهَا، فَاعتقَدَ أنهُ إذَا تركَهَا فَلنْ يتركَهَا اللهُ مُهملةً بدُونِ رَسولٍ يبعَثُهُ إليهَا، وَقدْ يكُونُ هَذَا الرسُولُ منْهَا، فَيكُونُ قادِراً عَلَى إقنَاعِ أهلهَا بصِدْقِ رسَالتِهِ.

وَدُونَ أمرٍ منَ اللهِ تَعالَى، وبغيْرِ إذْنٍ مِن رَسولِ الوَحْيِ، جِبريلَ عَليهِ السَّلامُ، أقدمَ يُونسُ عليهِ السَّلامُ عَلَى التَّصرُّفِ مِنْ تلقَاءِ نَفسِه، لمْ يأتِه بِهِ وَحيٌ، ولاَ توْجيهٌ إلهِيٌّ، لذلكَ وصَفَهُ اللهُ بالهَارِبِ، إذْ أبَقَ إلَى الفُلْكِ المشحُونِ، والآبِقُ هوَ العبدُ الفارُّ الهَارِبُ مِنْ وجْهِ سيِدِه ومولاَهُ.

خَرجَ يُونسُ عَليه السَّلامُ مِنْ نينوَى، تَاركًا الدَّعوةَ إلَى اللهِ خَوْفًا مِن الأذَى الذى اعْتقَدَ أنه سيَنالُهُ مِنْ هؤلاءِ القومِ، إذْ لَيس لَهُ أهلٌ بينَهُمْ، ولاَ عُصبةٌ تحميهِ منهُـمْ، وتقُومُ بنصرَته، ومَنْعِ الأذَى عنْهُ. ولَمْ يجدْ لَهُ وجهَةً إلاَّ البـحرَ، ينـتظرُ سفـينةً تحـملهُ إلَى بِلاَدٍ أخْـرَى، وقـومٍ آخرِين ربَّمـا يَستجِيبُونَ لدعْوته.

يُونسُ فِي بَطنِ الحُوتِ

خَرجَ يُونسُ عَليهِ السَّلامُ، تَاركًا وراءَهُ قوْمًا جَاحدينَ منكرينَ لفضْلِ اللهِ ونعْمـتهِ، وعلَى شَاطئِ البَـحْرِ وجَدَ سَفـينةً تَهمُّ بالرَّحيلِ، فَاسـتأْذنَ أَصحَابَهَا أَنْ يكُونَ معَهمْ فِي رحلـتِهمْ هَذه، فَأذنُوا لهُ بالرُّكوب، ورحَّبُوا بِهِ رفِيقًا لَهمْ، وغَادرتِ السفينَةُ الميناءَ مـتوَجِّهةً إلَى عُرضِ البَحْرِ الوَاسعِ. ولَمْ تَخلُ الرِّحْلةُ مِنَ المفاجآتِ الَّتِي تُظْـهِرُ قُدرةَ اللهِ لنبيِّه، ولبقـيةِ عِبادِه، ولتكُونَ قصَّةُ يونُسَ عِظةً وعبرَةً وذكرَى تدُومُ إلَى قيامِ السَّاعة.

لَقدْ غَضبَ اللهُ سبْحانَهُ وتَعالَى علَى يُونسَ عليهِ السَّلامُ، إذْ تصرَّفَ فِي أُمـورِ الدَّعـوةِ دُونَ إذنٍ منَ اللهِ عـزَّ وجَلَّ، ودُونَ أنْ يُوحِيَ إليْـه ربُّهُ باتِّخَـاذِ تلكَ الخطْوةِ التى لَمْ يكنْ لَهُ أن يتخـذَهَا، ولأنهُ تركَ المهمَّـة التى كَلَّفهُ اللهُ إيَّاهَا، وكَـانَ يجبُ أنْ يجَاهِدَ فِي سَـبيلهَا حَـتَّى يُظهرَهَا اللهُ أَوْ يَهلِكَ دُونهَا، ومَا كَانَ يَنبغِي لَهُ أنْ يَسلُكَ سَبيلَ الهرُوب.

أبحرت السَّفينةُ بيونُسَ عليهِ السَّلامُ، ولَمْ تَسرِ الرِّيحُ بهَا رُخاءً كَمَا يتَمنَّى رُكابُهَا، ويشتَهِى المسافِرُونَ عَلَيْهَا، فَقَدْ جاءَتْ رِيحٌ عَاتِيةٌ، اضْطَرَبتْ لَهَا السَّفينةُ، واهتزَّتْ جَوانبُهَا، وتَقاذفَتهَا الأمواجُ الهَائِجَةُ، حَتىَّ أوشكتْ عَلَى الغرقِ، وفكَّرَ أصْحَابُ السَّفينة وركَابُهَا فِى ذَلكَ الخطَرِ المفَاجِئِ الَّذى لَمْ يَحسبُوا لَهُ حِسَابًا، وَلَمْ يخْطُرْ عَلَى بَالِهِمْ، ولَمْ يعهَدُوهُ فِى مثْلِ ذَلكَ الوَقْتِ، ولَم يرَوْهُ فِى رِحلَةٍ سَابقةٍ. . فقَالُوا:

إنَّ هَذه الأمواجَ العَاليةَ، وَهذه الرِّيحَ القَويةَ المفاجِئةَ الَّتى لَمْ نَعهَدْهَا مِنْ قَبلُ، لَيسَ لَهَا سَببٌ إلاَّ أنَّ اللهَ غَاضِبٌ عَلَى هَذهِ السَّفينَةِ.

وتسَاءلُوا فِيمَا بينَهُمْ:

ولِمَاذَا يَغضَبُ اللهُ هَذَا الغضَبَ؟ ويُعلِنُ غضَبهُ بِهَذهِ الطَّريقةِ، ولَيسَ بَيننَا مَنْ يَستحقُّ ذَلكَ العذَابَ؟

قَالَ بعضُ ذَوِى العِلمِ:

إنَّ اللهَ لاَ يغضَبُ هَذا الغَضَبَ إلاَّ عَلَى شَخصٍ قَد عَصَاهُ، وَانحرَفَ عَنْ طَرِيقهِ المسْتَقيمِ، وَلا بُدَّ أنَ هَذَا الشَّخصَ بيننَا الآنَ، وإذَا لَم نعرِفْهُ ونخرِجْهُ مِنَ السَّفينةِ فسَوفَ يَعمُّنَا بَلاؤُهُ، ويَصيبُنَا رَشاشٌ مِنْ عَذابِ اللهِ له.

وتَساءَلَ الجميعُ:

وكيفَ لَنَا أَن نعرفَهُ؟ وإذَا عرفْناهُ، فكَيفَ نُخْرِجهُ مِنَ السَّفِينَةِ وَهِىَ فِى عُرضِ البَحرِ هكَذَا.



واتَّفقَ الجميعُ عَلَى الاقتِرَاعِ فيمَا بينَهم، فمَن أخرجتهُ القُرعَةُ يكُونُ هُو الشَّخصُ المغْضُوبُ عَليهِ، ويُفكِّرُونَ بعدَ ذلكَ فى كَيفيَّـةِ إخْراجِهِ مِنَ السَّفينَة.

وجَاءُوا بالسِّـهامِ ليصنْعُوا بهَـا القُرعَة، وشَملت القَـرعةُ كُلَّ ركَّاب السَّفينةِ، وجَاءَ السَّهـمُ ليعْلنَ أنَّ يُونُسَ هُوَ الشَّخصُ المطْلوبُ، فَلقدْ وَقعَ عَليهِ السَّهمُ، وكَانَ القَرارُ بإخرَاجِه مِنَ السَّفينةِ، أنْ يقْذفُوهُ فى البَحرِ.

وعندمَا سَـمِعَ يُونسُ هَذا القَرارَ، شَعـرَ بأنَّ هَذَا نَتيجَـةُ غَضبِ اللهِ عَليهِ، وأحَسَّ بمَا اقترفَهُ مِنْ إثمٍ لتخَلِّيهِ عَنْ دَعوتِه، وعَدمِ الجَهادِ لاستمرَارِ رِسالَتِه.

ولكنَّ رَحمـةَ اللهِ وسِعتْ كُلَّ شَىءٍ، فَـقدْ بعثَ اللهُ حُـوتًا ضَخـمًا وَقفَ تَحتَ السَّـفينَةِ، بأمـرٍ مِنَ اللهِ وَقفَ، وبأمرٍ مِنَ اللهِ أدَّى مـهمَّـتَه، وأصبحَ مـثلاً خَالدًا فِى قُرآنٍ يُتلَى إلَى أن يَرثَ اللهُ الأرضَ وَمن عَلـيهَا. فَلمْ يكدِ القَـومُ يَرمونَ يُونسَ عَليـهِ السَّلامُ فِى المَاءِ، حَـتَّى اسْتقـبلَهُ ذلكَ الحُوتُ فاتحًا فمَهُ، فَابتلَعهُ عَلَى الفَورِ حَتَّى لاَ يمُوتَ غَرقًا فِى البحرِ.

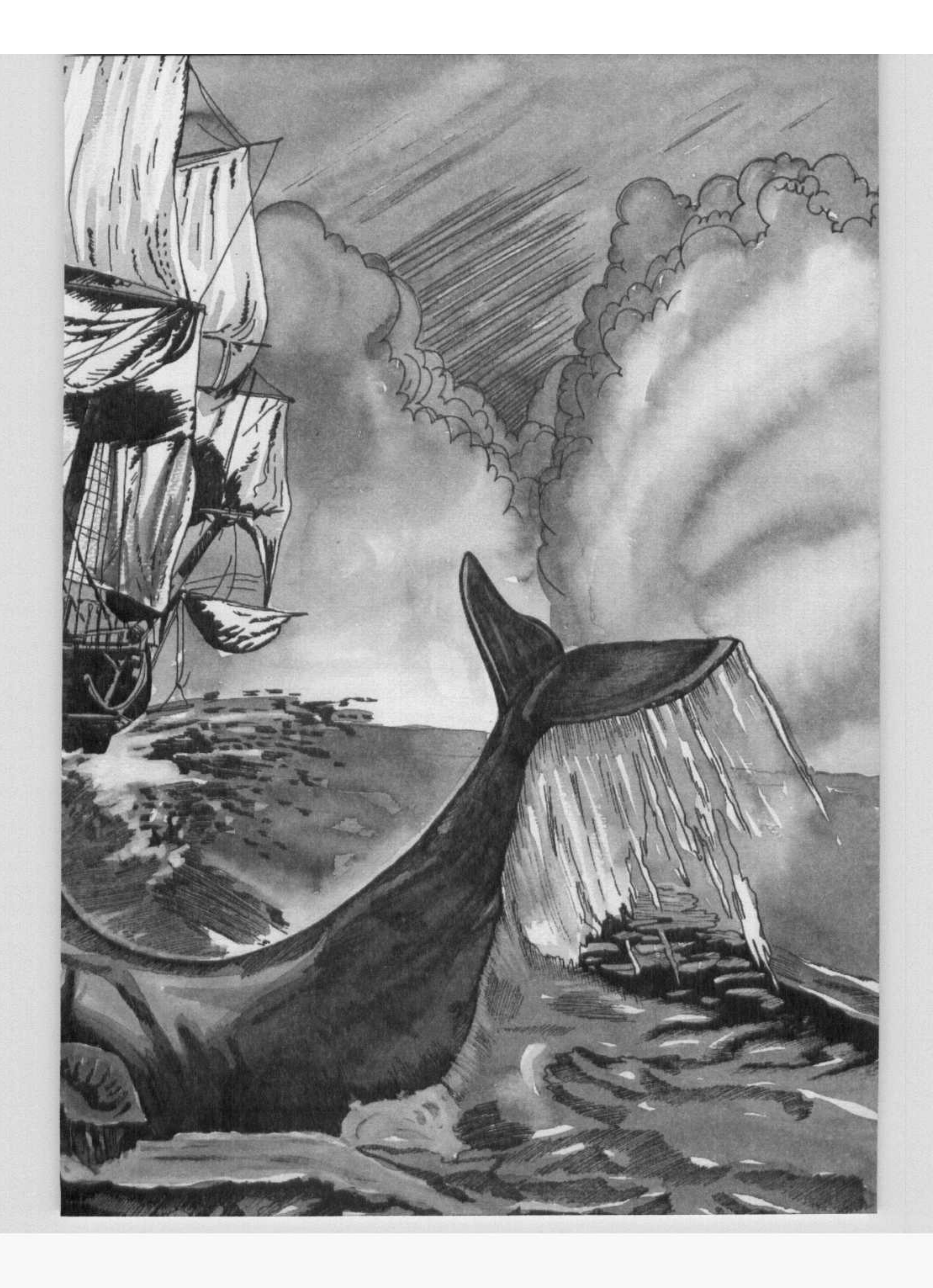
وَفِى الحَالِ هَدأت الأمواجُ، وسكنَت الرِّيحُ، واستقرَّت السَّفِينَةُ عَلَى سَطحِ الماءِ، ثُمَّ بدأتْ تَسِـيـرُ آمنةً مُطمئـنَةً، وكَأنْ لَمْ يحْـدُثْ شَىءٌ عَلَى ظَهرِهَا، وكأنهَا لَمْ تكنْ مُهدَّدةً بالغرَقِ هِىَ وَمَنْ عَليهَا مُنذُ لحظَات.

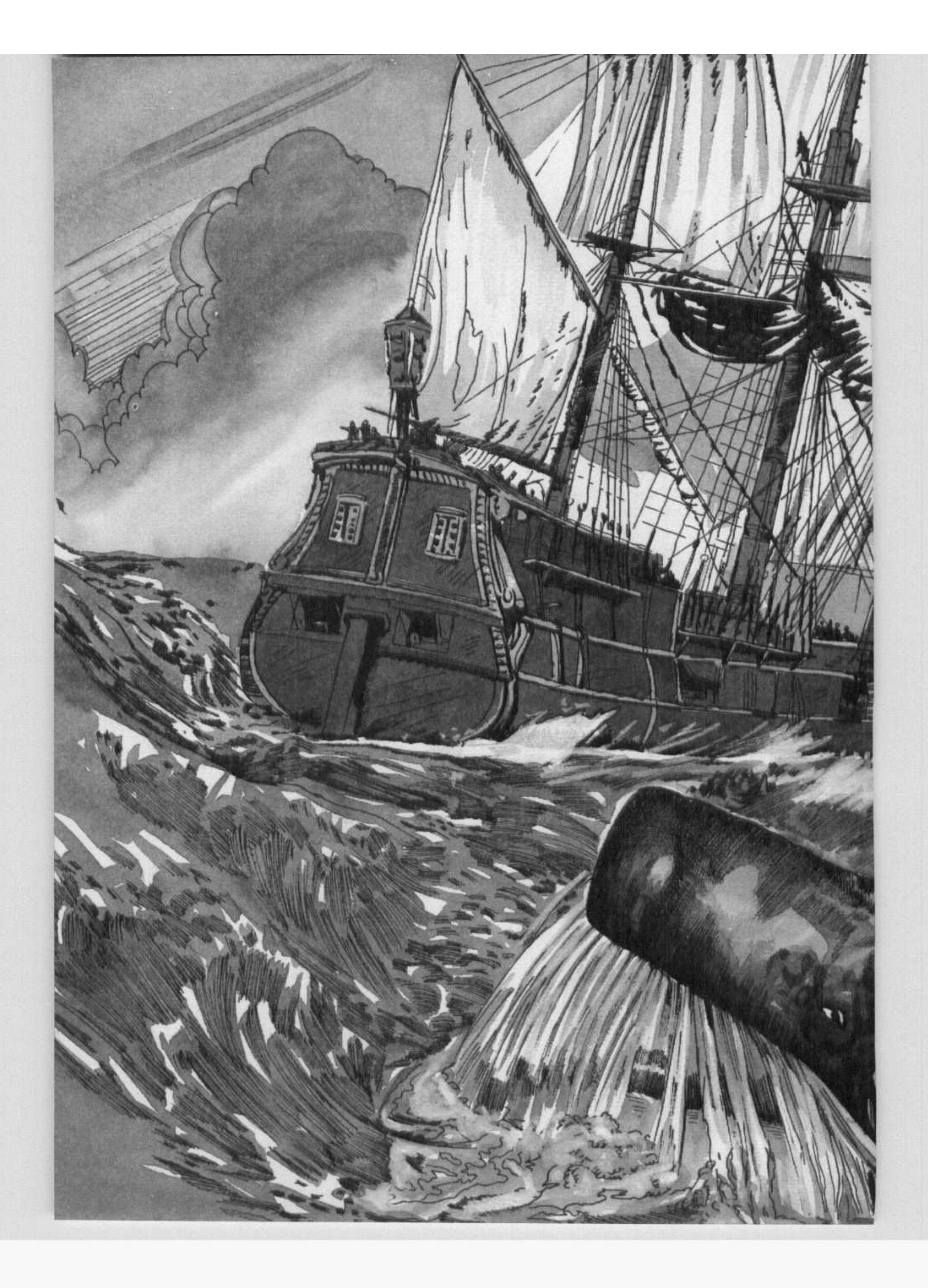
وكَانَ التقَامُ الحوتِ ليونُسَ عَليهِ السَّلامُ، آيةً مِنْ آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وَدليلاً عَلَى قُـدرتِه سُبحَانَهُ وتعَالَـى، ورَحمتِه الوَاسعَـةِ، وقَد اتَّسعَ بطنُ الحُوتِ، وهَبطَ يُونسُ داخلَهُ، دونُ أَن تَجرحَهُ أسْنانٌ أو تَهضِمَه معِدةٌ، أوْ يَحدثَ لهُ ما يحدُثُ لأىِّ طَعامٍ يَدخلُ بطنًا مِنَ البُطونِ.

وَظَلَّ يُونُسُ فِـى بطنِ الحُـوت ثلاثَةَ أَيـامٍ كَـاملةً، بِفَــضْلٍ منَ اللهِ وبِقْدرتهِ عزَّ وجَلَّ، ولَمْ تؤثِّرْ عَليهِ إفرازاتُ المعِدَة القَوية، الَّتى تُساعِدُ عَلَى عَصْرِ أَصـلبِ العِظَامِ الَّتى يَبتلعُهَا الحـوتُ دَائمًا منَ الأسماكِ أو البشَرِ، وَغَـيرِ ذَلكَ مِنَ الكَائـنات المائيَّة الأُخْـرى، ولَمْ تؤثِّرْ فِـيه أسنانُ الحـوت الكَبـيـرةُ التى تستطـيعُ أنْ تجُرشَ أقسَى الموادِّ وأصْلبَـهـا، بَلْ ظَلَّ سَليمَ الجسَدِ، سَليمَ الرُّوح والعَـقْل، حَتَّى البَحْرُ نفْسُهُ ومَا فـيهِ مِنْ تقلُّبات منَ الضَّغط الجوِّى الكَبيرِ فِى قَاعِـه، أَوِ البرودَة الَّتى لاَ تحتمَلُ فِى جَوْفِه، كُلُّ ذَلكَ لَمْ يكنْ لَه أثرٌ فِى تلـكَ المدَّة الَّتى قَضَـاهَا يونُسُ فِى بَطنِ الحُـوت. لأنهُ عَليهِ السَّلامُ كَانَ مشغُولاً عَنْ ذلكَ كُلِّه بذكْرِ الله وتَسبيحه، لاَ يعرِفُ هَلْ جَاءَ صَبَاحٌ أوْ مضَى مساءٌ، أَوْ أسفرَ صُبحٌ، أو سَجَا لَيلٌ، فقدْ تشابَهَ الوَقْتُ، ولَمْ يخْـتلفِ الزَّمَنُ، واسْتـقرَّ المكَانُ، ولمْ يَعُدْ يُـونس يَرجُو إلا عفوَ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

مَكَثَ يُونسُ فِى بَطنِ الحُـوت، لَمْ يشْغَلْ نفسَـهُ بالبَحْث عَنْ طَريقِ النَّجاة، بَلْ كَانَ كُلُّ مَا يطلُبهُ هُوَ رضَا اللهِ وَعفوُهُ عَنهُ، ورحْمتُهُ بِهِ، فَظلَّ يُسبِّحُ بحـمْدِ اللهِ، وطَلَبِ العفْـوِ والمغْفِرةِ، وتَركَ لـنَا ذَلكَ الدُّعَاءَ المأثورَ الَّذِى جَعلهُ اللهُ سببًا لتفرِيجِ الكُروبِ، وإزالةِ الهُمومِ، إذْ ظَلَّ لِسانُهُ يردِّدُ:

«لاَ إله إلا أَنتَ سُبحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمينَ.



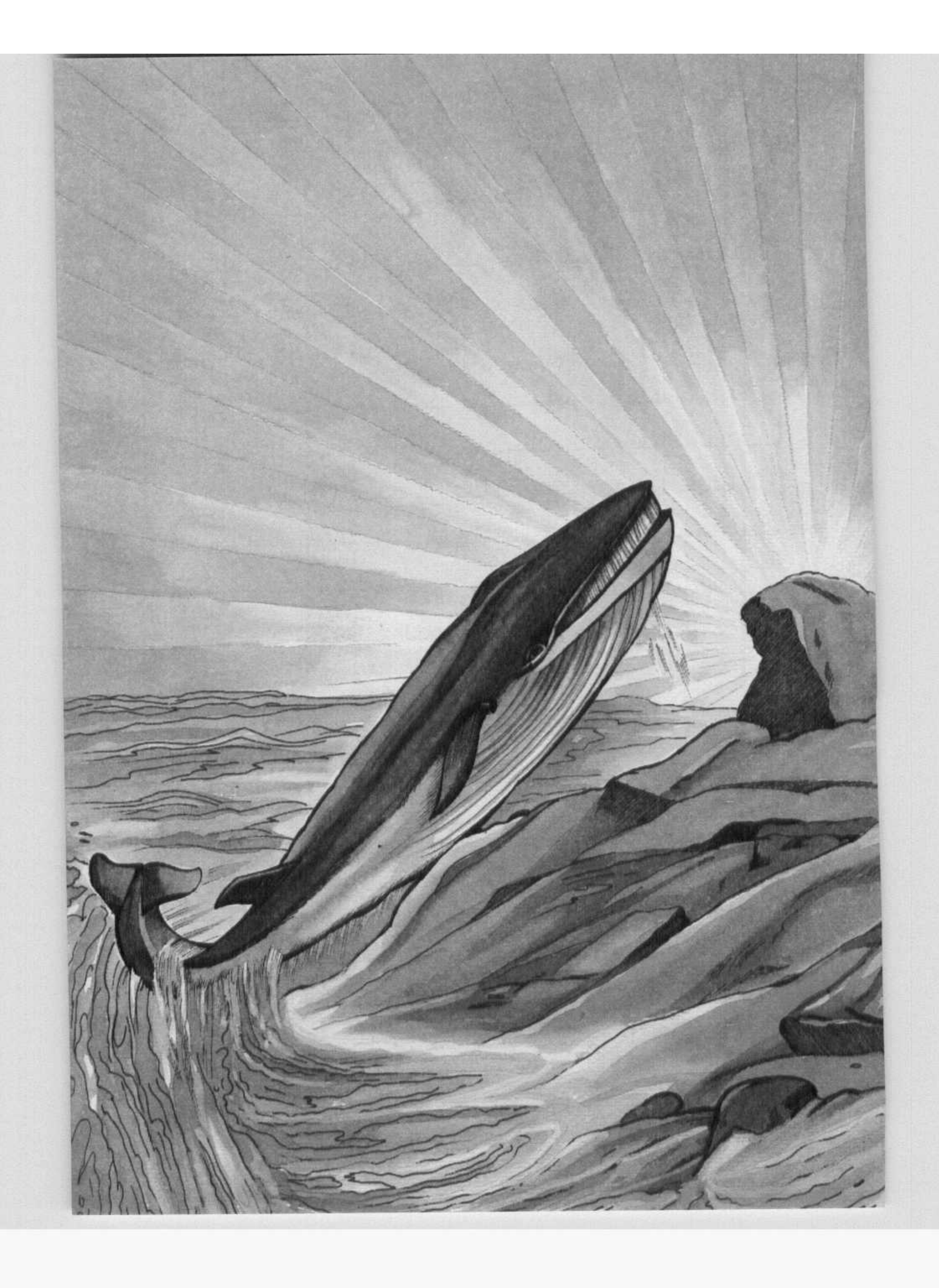


وَاستجَابَ اللهُ دُعَاءَ يُونسَ عَليه السَّلامُ، لأنَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ، ولأنهُ لعباده أقربُ منْ حَبل الوَريد، يُجيبُ دَعوةَ الدَّاعِى إذَا دعَاهُ، ويغْفرُ ويْعفُو ويرْحمُ، وهوَ أرْحَمُ الرَّاحِمينَ.

وبِأمْرٍ مِنَ اللهِ سبحانَه وتعَالَى خَرجَ الحوتُ إلَى الشَّاطِئِ، ولَفظَ يُونُسَ عَليه السَّلامُ مِنْ بطنه، وألقاهُ عَلَى التُّرَابِ، وَفِى الشَّمسِ والنُّور والهَواء، تَغْييرٌ كَاملٌ فِى حَيَاته، منْ ظُلمات بَطنِ الحُوت، الَّذى كَانَ يَسيرُ بِهِ فِى ظُلمَات البَحرِ، إلَى نُور اللهِ عَلَى الأرْضِ، ولَكنْ لَمْ يكنْ يُونُسُ فِي حَالة جَسديَّة عَادية، وكيفَ يكُونُ عَاديًا مَنْ يقْضِى مِثْلَ هذَا الابتلاَء، ثَلاثَةَ أيَّامٍ مُتتابِعة، فِى ظُلمَات تَحتَ ظُلمَات، بِلاَ طعَامٍ ولاَ شرَابٍ، وَاللهُ وَحْدَهُ يعلَمُ هَلْ نَامَتْ عَيْنُ يُونُسَ فِى تلكَ المدَّة أمْ كَانَ النَّوم أيضًا مِنَ المستَحِيلاَت.

لَقدْ كَانَ مريضًا مُتعبًا جَائعًا، فَأنبتَ اللهُ عَليهِ شَجَرَهَ قَرعٍ ضَخمَةً، مَدَّتْ عَليه أوراقَهَا لتحْمِيَهُ مِنْ وَهجِ الشَّمسِ، ولِيتخِذَ مِنْ ثمرهَا طعَامًا يَدفعُ بِهِ ألَمَ الجُوعِ، وكَانَ فَرحُهُ بهَا لاَ يُوازِنُهُ فَرحٌ فِى الدُّنْيا، فَظَلَّ يَعتَنى بِهَا كَمَا يَعتنى الزَّارِعُ بِأىِّ شَجَرةٍ عَزيزةٍ عَليهِ، يَأتِى لهَا بالماءِ ليرويَهَا وينَامُ فِى ظِلِّ أورَاقِهَا آمِنًا مطمئنًّا.

وكأنمَا قَدْ طَابتِ الحيَاةُ ليُونسَ فِى هذَا المكَانِ، واكتفَى مِنَ الدُّنيَا بِهذِه الشَّجرةِ، فَأرادَ اللهُ أنْ يذكِّرهُ بمهمَّتِه الَّتى كَلَّفَهُ إيَّاهَا، فأرسَلَ اللهُ حَيوانًا قارضًا صَغيرًا، أخَذَ يقرِضُ جُذورَ الشجَرة، وأصلَهَا حَتَّى مَاتتْ، وذَبُلتْ فُروعُهَا، وجفَّتْ أوراقُهَا، ولَمْ تَعدْ ذَاتَ فَائدةٍ فِى ظِلٍّ ولا غِذَاءٍ.



عَوْدٌ حَمِيدٌ

لَمَّا ماتَتْ شَجَـرَةُ القرْعِ حَزِنَ يُونسُ حُزنًا شَدِيدًا، وابْتأسَ ابْتِـئاسًا لاَ مَزِيدَ عَـليهِ، فأرسَـلَ اللهُ رسُولَ الوحْيِ، جِبـرِيلَ عَليهِ الـسَّلامُ، لِيُعَـلِّمَهُ الدرسَ الذى لاَينسَاهُ، فقَالَ لَهُ:

كَيفَ تَأسفُ كُلَّ هَذا الأَسف عَلَى شَجرة قَرعٍ، لَيستْ بذَات شَأْن، وَتهتمُّ بهَـا كُلَّ هذَا الاهتمَام؟ أليسَ اهتـمَامُكَ بالنَّاسِ أفضلَ؟ أفـلاَ تَهتَمُّ بأمرِ الدَّعوة إِلَى الله، فتذْهَبَ إِلَى تلكَ القرْيةِ التى يَزيدُ عَددُ سُكانِهَا عَلَى مائةَ ألف إنسَان، وتنقذَهُمْ منَ الضَّلالِ الَّذى يَعيشُونَ فيِه، وتقيَهمْ غَضبَ اللهِ الَّذى يُوشِكُ أَن ينزلَ بِهمْ؟

لَمْ يتركْ يونسُ عَليـهِ السَّلامُ وقتًـا للتفكِيرِ فِى الأَمْـرِ، بَلْ قَامَ عَلَى الفَورِ لتنفيـذِ أمرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وأَداء وَاجبه إزاَءَ الدَّعـوة إِلَى توحيدِ الله والإِيمَـان بِهِ، واتِّباعِ دينه القَـويمِ، الَّذى بِهِ تكُونُ نَجـاةُ النَّاجِينَ، وفَـوزُ الفَائزِينَ، وفَلاَحُ المفلحِين.

اتَّجهَ يونسُ إِلَى القَـريَةِ الكَبيـرَةِ نينَوَى، وَدَعا أَهلَهَا إِلَى عِـبَادة اللهِ الوَاحدِ الأَحَدِ، الفَردِ الصَّمَـدِ، وَدعَاهُمْ إِلَى تَركِ الوَثنيَّة وعبَادة الأَصْنَامِ، ونصَحهمْ بأنْ يعبُدُوا اللهَ الواحدَ القهَّـارَ. دَعاهَمْ إِلَى التَّفكيرِ بعُقولِهمْ فِى خَالقِ النِّعمِ الَّتِى حَولهُمْ فِى كُلِّ مكَان، فِى الأَرضِ وَفِـى السَّماءِ، دعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَأخُذُوا العظةَ والعبرةَ منَ السَّابِقينَ، قَومِ نُوحٍ وهُود وصَالحٍ ولُوطٍ ومُوسَى، وَغيرِهِمْ مِنَ الأَقوامِ الَّتِى حَـلَّ بِهَا غضَبُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فأَنزلَ بِهمْ عِقَابَهُ الأَليمَ، ودمَّرَهُمْ تَدميرًا.



سَعَى يُونُسُ بِكلِّ عَوامِلِ الدَّعوةِ وَأُسُسِهَا، إِلَى أَهلِ نِينَوَى، ذَكَّرهُمْ بقدرة الله عَزَّ وجَلَّ عَلَى أَنْ يَستبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَهُمْ، كَمَا اسْتبْدَلَ بَنِى إسرائيلَ فِى أَيَّامِ التِّيهِ. . وكَانت المفاجَأَةُ المذهلةُ الَّتِى فَاقتْ كُلَّ توقُّعٍ بَشرِىٍّ، وكَانتْ مُفاجَأَةً للدَّاعِى نَفْسِه، أَنَّ جَمِيعَ أَهلِ القَريةِ فَتحَ اللهُ قُلوبَهُمْ للإيمَانِ، فَآمنُوا بيُونُسَ، وبِإلهِ يُونُسَ، فَآمن بِهِ أغلبُ أَهلِ هَذِه المدينَةِ وَالَّتى يَزيدُ عَددَ سُكَّانهَا عَلَى مائَةِ ألفِ نَفْسٍ، آمنتْ بِالله رَبِّ العَالمِينَ، وآمنتْ بيُونسَ نَبيًّا، فِى سَابقةٍ لَمْ تَحدُثْ لأىِّ رَسولٍ مِنْ رُسُلِ الله. ولَمْ تَسبقْ لأىِّ أُمةٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَإِنَّ التَّارِيخَ لَمْ يذْكرْ فِى صَفحَاتِهِ أَنَّ أُمةً مِنَ الأُممِ آمنَتْ كُلُّهَا دَفعةً واحِدَةً برسالَةِ نَبِىٍّ مِنَ الأَنبياءِ.

لَقدْ فَتحَ الإيمَانُ أبوابَ الخَيرِ والبركَةِ لَهمْ ولأَوْلَادِهِمْ، فعَفَا اللهُ عَنهُمْ، واللهُ يضَاعِفُ نعمَهُ للمؤمنينَ مِنْ عِبَاده، فَمتَّعهُمُ اللهُ بالنعَمِ الجزِيلَةِ فِى الحيَاة الدُّنيَا جزاءَ إيمَانِهِمْ، وبسَطَ لَهمْ الرِّزقَ والرَّغدَ فِى العَيْشِ، وأنزلَ اللهُ فِى شأنهِمْ قُرآنًا عَلَى نبينَا مُحمدٍ ﷺ، فقَالَ جَلَّ شأنُهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

لَقدْ كَشفَ اللهُ عَنهُمْ عَذابَ الخزْىِ فِى الدُّنيا لأَنَّ اللهَ يُحبُّ التَّوابِينَ، ويفتَحُ بابَهُ للسَّائلينَ، ويُعْطِى مَنْ آمَنَ بِلاَ حِسَابٍ، ورزقُ اللهِ كَثيرٌ، وَخيرُه عَمِيمٌ، فمَنْ أَرادَ النَّجاحَ والفَلاحَ والسَّعادَةَ فِى الدُّنيَا والهَناءَ، فعلَيهِ أَن يصلَ نفْسَهُ باللهِ عَنْ طريقِ الصِّدقِ والأمانةِ والوَفاءِ.

وهكَذَا نتَـأمَّلُ قِصَّـةَ يُونسَ عليه السَّـلامُ، فنَجدُهَا نَفـتَحُ لَنَا آفَـاقًا اجْتمَاعيةً لاَ يجوزُ لَنَا غَضُّ الطَّرفِ عَنْهَا أَو إهمَالُهَا. فَلننظرْ:

هَلْ نَضِـيقُ بِإِخوانِنَا عندَمَـا نقدِّمُ لَهمُ النَّـصيحَـةَ الصَّادقَـةَ وهُمْ لاَ يَستجِيبُونَ لَهَا؟

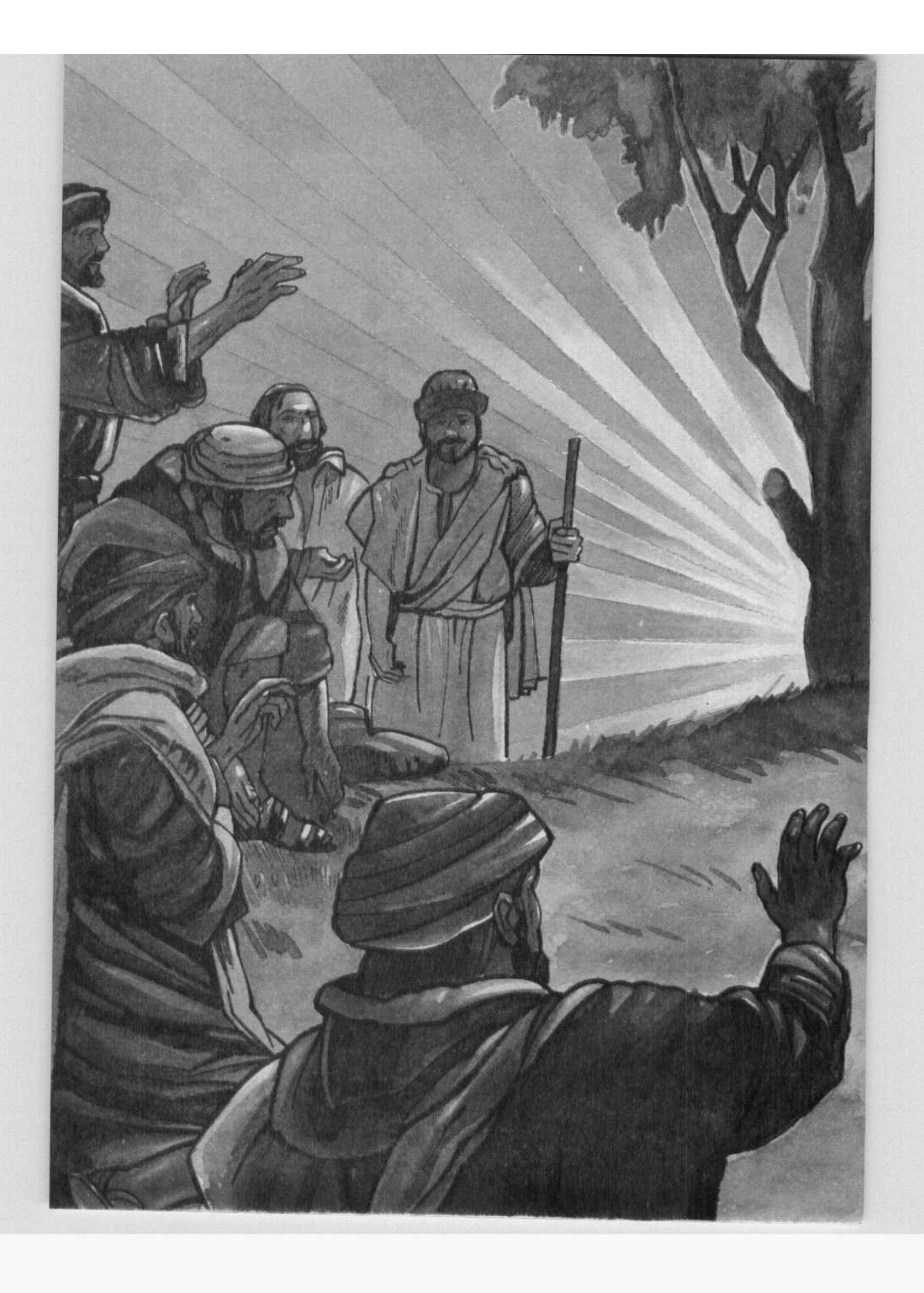
أَم هَلْ نُصِـرُّ ونواظِبُ عَلَى تَقـدِيمِ النُّصحِ والإِرشَادِ لمَـنْ يَستـحِقُّـهُ بصَرْفِ النَّظرِ عَنِ النَّتيجَةِ؟

الحقِـيقَةُ أنهُ لاَ بدَّ أن نعلَمَ عِـلْمَ اليقينِ أَنَّ علينَا العـمَلَ وليسَ عَلينَا إدراكُ النجَاحِ، وأَنَّ اللهَ سبْحانَهُ وتَعالَى لاَ يُضِيعُ أَجرَ مَنْ أَحسنَ عَملاً.

وُيتبينُ لَنَا مِنْ سِيَاقِ قصَّةِ عَـبدِ اللهِ الصَّالِحِ ونَبيِّهِ الكريمِ يُونسَ عَليهِ السَّلامُ، أَنَّ عدَمَ اليَأسِ لاَ بـدَّ أنْ يكُـونَ صفَـةً مُلازمَةً للمؤْمِنِ، حَتَّى فِي أَشدِّ المحَنِ، وأَكثرِ المواَقفِ والأَيامِ ظَـلامًا، فإِنَّهُ لاَ ييأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَومُ الكافِرونَ.

كَمَـا أَنَّ عَلينَا أَنْ نتعَلَّمَ مِنْ هَذهِ القصَّـةِ أَنَّ الصَّبرَ والمثَـابرةَ طرِيقَانِ يوَصِّـلانِ الإنسَـانَ إِلَى النَّجاحِ وتحقِـيقِ مَـا يُرِيدُ، ويَجبُ عَلينَا الدعـاءُ وتَسبيحُ اللهِ وذكْرُه واسْتغـفارُهُ والرجَاءُ منهُ وحدَهُ معَ أى عملٍ ليكْتملَ لهُ النَّجاحُ ونَجنِى ثَمرتَهُ الَّتى هِى رِضْـوَانُ اللهِ، وزيَادةُ نِعَمِه، وفَضلِه العَظيمِ الَّذى بَشَّر بِهِ المخْلِصينَ مِنْ عبادِه.





إن دَعوةَ النَّاسِ إلَى الفضَائلِ ومَحَاسنِ الأخلاقِ ومكارمِ الفعَالِ هى دَعوةٌ واجبَةٌ علَى المسْلمينَ كَافَّةً، بالنصْحِ اللّينِ، والإرشَادِ المقْنعِ، والحكْمةِ والموْعظَةِ الحسنَةِ، ممَّا يَجْعلُ المجتمعَ كَالجسَدِ السَّليمِ منَ الأمْراضِ، الصَّحيحِ منْ كُلِّ دَاءٍ، فَيظلُّهُ الأمنُ والسَّلاَمُ والرَّخَاءُ والاستقْرارُ.

لَقدْ سَاقَ لَنَا القرْآنُ الكَريمُ قصَّةَ يُونسَ عَليهِ السَّلامُ، لتكُونَ عظَةً للوَاعظينَ، وعبرَةً لأُولى الألْبَابِ، وقدْ جَاءتْ تلكَ القصَّةُ فِى أكثرَ منْ موْضعٍ منْ كتَابِ اللهِ الكَريمِ. .يقولُ اللهُ تَعالَى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. [الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].

وَفِى سُورَةِ القَلَمِ يُواسِى اللهُ سُبحَانَهُ وتعَالَى نبيَّهُ مُحمَّدًا عَليهِ السَّلامُ، ويحذِّرُهُ أنَ ييأسَ فيفعلَ مَا فعلَهُ يونسُ، فيقولُ جَلَّ شأنُهُ:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. [القلم: ٤٨ - ٥٠]

وَفى سُورة الأَنبيَـاء يَأتى الدُّعاءُ الَّذى اسْتغَـاثَ به يُونُسُ رَبَّهُ فأغَاثَهُ ونجَّاهُ مِنَ الغَمِّ، وفرَّجَ عَنَهُ الكَرْبَ، إذْ يقُولُ سبحَانَهُ وتعَالَى:

﴿ وَذَا النُّونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضبًا فظَنَّ أَن لَّن نَّقْدرَ عَلَيْه فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَات أَن لاَّ إلَهَ إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالمينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلكَ نُنجِى الْمُؤْمنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

وَإنَّ فِى تلكَ الآيَاتِ لذِكـرَى لِمنْ كَانَ لَهُ قَلبُ أَوْ أَلقَى السَّـمعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

